(فصل من رواية)

كأنها نائمة

الياس خوري

انشقت اهداب ميليا عن عينين يغطيهما النعاس، فقررت ان تغمضهما من جديد وتتابع المنام. رأت شمعة صغيرة بيضاء يرتجف نورها الشاحب في الضباب. منصور يحمل الشمعة ويمشي امام سيارة التاكسي، والهواء يضرب معطفه الطويل، لكنها لم تستطع ان تتبين ملامح زوجها. مدت يدها الى كوب الماء الذي تضعه في العادة على الطاولة الى جانب سريرها، فلم تجد الماء. احست بالعطش، وتكسّر الجفاف على لسانها وفي سقف حلقها. سحبت ذراعها اليسرى الممدودة تحت رأسها فوق المخدة من اجل ان توقف التنمّل الذي امتدّ من اعلى الذراع الى العنق. تقلّبت في الفراش. استلقت على ظهرها، مدت يدها الى كوب الماء فلم تجد الطاولة. انتفضت فوجدت نفسها جالسة في السرير ورأسها يستند الى حافته الخشبية. اين اختفى الحائط الأبيض الذي كانت تسند اليه رأسها، وتشعر بطلائه المتقشّر يتفتت تحت شعرها الطويل ويتداخل به؟ الصقت ذراعيها بصدرها فلامستا ثدييها العاريين. جاءها الخوف، وتسللت البرودة الى فخذيها. مدت اليهما يدها اليمنى كي تخفف من ارتعاشتهما، فلامس باطن كفها فخذين عاريين، صعدت بكفها الى

الياس خوري، روائي من لبنان/ بيروت

اعلى الفخذين، فأحست دماً بارداً يتخثر عند اسفل بطنها.

«هذا هو الزواج»، قالت بصوت منخفض، واغمضت عينيها من جديد.

حفظت ذاكرة ميليا مشهد ضهر البيدر، كأنه خيال ظلّ مرسوم باللون الأسود. زوجها منصور حوراني يحمل شمعة صغيرة، ويمشي امام السيارة ببدلة العرس السوداء، والمعطف الزيتي الطويل. جلست الفتاة بثياب العرس البيضاء في المقعد الخلفي من السيارة، تغطت بالعتمة وهي تشاهد صلعة السائق تلتمع بالقشور البيضاء. سوف تقول لزوجها عند وصولهما الى مدينة الناصرة في الجليل ان صورته انطبعت في عينيها شبحاً اسود يتداعى امام السيارة التي لم تستطع اضواؤها الأمامية ان تشقّ الضباب الكثيف الذي غطى مرتفع ضهر البيدر، في تلك الليلة المثلجة.

في الثالثة من بعد ظهر السبت ١٢ كانون الثاني ١٩٤٦، تزوج منصور وميليا، في كنيسة الملاك ميخائيل، وبارك اكليلهما الكاهن بولس سابا. عندما انتهت الصلاة، وقف العروسان امام باب الكنيسة، وحولهما افراد عائلة ميليا من اجل تقبل التهاني. انهمرت الدموع من عينيّ ميليا فلم ترَ احداً من المهنئين. كانت دموعها تقفز من عينيها كأنها تطير، قبل ان تحطّ على خديها الأبيضين. منصور الذي احتلت ابتسامة عريضة شفتيه الرفيعتين، كاشفة عن اسنان صغيرة بيضاء، لم ينتبه الى بكاء عروسه الا حين سمع امها تنهرها قائلة: «عيب يا ميليا شو نحن بدفن، هيدا عرس». وعندما غادر جميع المدعوين حاملين علب الملبس الفضية، ولم يبقَ في باحة الكنيسة سوى افراد العائلة، اقتربت الأم من ابنتها وضمتها الى صدرها، وارتجفت المرأتان بالبكاء. ازاحت الأم ابنتها وقالت: «ولو يا بنتي رح تقطعيلي قلبي، خلّي البكي علينا، انتِ لازم تفرحي». ابتسمت العروس وهي تشرق بدموعها، وبكت الأم، قبل ان ترتفع زغرودتها، واحاط اشقاء ميليا بالعروسين. ورأت العروس شقيقها موسى وبؤبؤاه يتصاغران داخل عينيه، فأحست بالخطر، رفعت يدها بشكل لا ارادي كأنها تغطي وجه زوجها، وتحميه من نظرات اخيها.

فتحت ميليا عينيها فلم ترَ سوى الظلام. قررت متابعة هذا المنام الغريب، وهي تشعر بشيء من الأمان على الرغم من خوفها. اخيراً عادت المنامات الى ليلها. ميليا ترى نفسها في المنامات فتاة صغيرة، في السابعة، سمراء، ذات شعر اسود قصير ومجعّد، تركض بين الناس وترى كلّ شيء. وحين تنهض في الصباح، تروي ما تشاء، فينظر اليها الجميع بخوف وذهول لأن مناماتها تشبه النبوءات التي تتحقق دائما. اما هنا، في هذا السرير الغريب، ووسط العتمة التي تتراكم على

عينيها، فقد حلمت نفسها امرأة في الرابعة والعشرين، تتمدد عارية على سرير ليس سريرها، وتضع رأسها على وسادة ليست وسادتها.

فتحت ميليا عينيها من اجل ترتيب المنام، قبل ان تعود الى النوم من جديد، فلم ترَ سوى عينين مفتوحتين على الظلام.

فتحت عينيها فرأت عينيها، وخافت.

استند الرجل الى جذع شجرة الزنزلخت، وقال لها ان لوناً ازرق فاتحاً ينتشر في بياض عينيها ويعطيهما مسحة سماوية. قال ان بشرتها البيضاء، وعنقها الطويل، وعينيها العسليتين، وشعرها الكستنائي الذي يتهدّل على كتفيها، اتت به من مدينته البعيدة من اجل ان يتزوجها. وقال انه يحبها.

اين قال هذا الكلام؟

ولماذا حين تستيقظ من هذا المنام يبقى المنام ولا ترى سوى عينين مفتوحتين على العتمة؟

قررت ميليا ان تنهض من السرير وتجلب كوب ماء، فرأت عريها الأبيض منعكساً في مرآتي عينيها، اغمضتهما، وقررت ان تطلب من الرجل الذي ينام الى جانبها في السرير، مديراً لها ظهره، العودة الى السيارة لأنها تخاف عليه. اغمضت فرأت نفسها تنزلق وتدخل في الغمام الأبيض. نسيت عطشها حين رأت امرأة عارية مستلقية، وامامها زجاج سيارة مغبّش بالأنفاس، ورجل يمشي امام السيارة حاملاً شمعة مرتجفة، كأنه يخترق الضباب، ببدلته السوداء، ومعطفه الزيتي.

صمت، وامرأة عارية، وسيارة تتحرك ببطء شديد وسط الضباب، وسائق ينحني على المقود محاولاً ان يرى الطريق من خلال زجاج مليء بالبقع البيضاء، ورجل يمشي امام السيارة حاملاً شمعة بيضاء، يغطيه ضباب ابيض.

انطفأت الشمعة، او هكذا بدا لها. وقف الرجل في منتصف الطريق فاتحاً معطفه، كأنه يحاول ان يخبئ الشمعة في داخله من اجل ان يشعلها من جديد. تقوّس ظهره وانحنى، وتطاير معطفه في الهواء، لكن الرجل بقي جامداً في مكانه. انفاس السائق ترتفع. السائق يفتح نافذة السيارة، يخرج رأسه ويصرخ بكلام غير مفهوم.

ميليا بردانة، وألم حاد يخترق بطنها. حاولت ان تتغطى، التفّت بالمعطف البني، ضمت

يديها الى صدرها، وسمعت اسنانها تصطك. تغطت بالمعطف والعتمة، وفكرت ان لا لزوم للشمعة. قررت ان تخرج من السيارة كي تقول للرجل ان الأضواء الأمامية للسيارة عاجزة عن اختراق الضباب، فماذا تستطيع الشمعة ان تفعل؟ سوف تقول له ان يعود الى السيارة، لكنها لا تجرؤ على الخروج لأنها عارية وبردانة.

من وضع السرير في السيارة؟ ولماذا تعرت؟

فهي حين تنام تلبس قميص نوم ازرق طويلاً يصل الى كاحليها، ولا تخلع صدريتها. قررت ان لا تخلع صدريتها حين رأت ثديي جدتها الطويلين المتهدلين، خافت من تساقط ثدييها على بطنها، فقررت ان تشدهما كل الوقت، حتى حين تنام. لكنها الآن بلا قميص نوم وبلا صدرية. انفاس السائق ترتفع، صدره يستند الى المقود، وعيناه تلتصقان بالزجاج الأمامي للسيارة، وميليا خائفة. الرجل الذي يتراءى لها من خلال الضباب يبتعد كأنه يطير. انتفخ معطفه بالهواء، وبدا كأنه يرفرف وحيداً فوق الوادي.

رأت ميليا نفسها بيضاء في المنام، ولم تفهم من اين جاءها هذا البياض. الجسد الذي تلبسه في النهار ليس لها، انه انعكاس لعيون الناس. امها ارادت ابنة بيضاء ذات جسد ممتلئ، فابيضّ جسد ميليا وامتلأ من اجل امها. اما في الليل فجسدها لها. انها في السابعة، سمراء، رفيعة القد، عينان واسعتان تحتلان الوجه، شعر اسود ومجعّد، انف صغير ودقيق كأنه مرسوم تحت حاجبين طويلين رفيعين، تلبس بنطلوناً قصيراً وتركض حافية. عيناها تستعيران بؤبؤين اخضرين بدل البؤبؤين العسليين اللذين يراهما الناس في النهار. والبؤبؤان يسبحان في بياض يتخلله ازرق فاتح يكاد لا يرى.

ميليا تحب الليل وتركض في شوارعه الضيقة. تستلقي على سريرها وتفتح عينيها، فيرتسم الليل من حول اجفانها. وعندما تكتمل العتمة تغمضهما وتذهب الى مناماتها. وفي الصباح، لا تمسح المنامات عن عينيها، تتركها دوائر مرسومة بحبر ممحو كي تعود اليها حين تشاء. يكفي ان تغمض حتى تمّحي الأصوات وتندثر الأضواء، فتذهب الى حيث ترى كلّ شيء، وتكتشف الأسرار.

لم تخبر ميليا احداً انها تخبئ مناماتها في مكان عميق تحت العتمة. تحفر في العتمة وتضع مناماتها. تذهب الى الحفرة حين تشاء، تخرج ما تريد من مناماتها وتحلمها من جديد.

هذا المنام يأتي من لا مكان. ففي حفرة المنامات لا وجود لهذه الميليا. ميليا الليل ليست ميليا النهار. من اين اتت صور النهار؟ ألأنها تزوجت؟ هل هذا هو الزواج؟

تشعر ميليا بالاختناق وترتجف من البرد. صار الليل بئراً، وهي في قعر البئر. انفاس السائق ترتفع وتلفح عنقها. كأنه يئن من الألم. حاولت ان تسأل السائق الأصلع ما به، لكن صوتها اختفى. حاولت ان ترفع رأسها عن الوسادة، لكن رأسها صار ثقيلاً. وفجأة نزل السائق من السيارة. السائق اختفى ومنصور اختفى، والمرأة العارية وحدها في السرير، الضباب يحاصرها والثلج يتساقط من حولها. حاولت ان ترفع قدمها اليسرى التي جمدت من البرد، لكنها لم تستطع. احست انها تسقط من السرير. ضربها ألم فظيع بين فخذيها، سكين يطعنها، ودم. صرخت، ارادت ان تصرخ بأن السائق يغتصبها، لكن صوتها اختفى، وامتلأ فمها بالقطن.

ميليا وحدها في العتمة والبرد. قررت ان تفتح عينيها وتخرج من هذا المنام، فرأت وجهاً ابيض ذا جناحين ابيضين. مدت اليه يدها اليمنى، فالتصق الريش على اطراف اصابعها. صرخت طالبة منه ان يخلصها، لكنه لم يسمع صوتها، ارادت ان تقول انها تريد العودة الى بيتها، وانها لم تعد تريد الزواج، لكنها لم تقل. الوجه ذو الجناحين يحلّق فوق السيارة وفوق الوادي وفوق الرجلين. يبتعد والريش يتساقط منه. ريش ابيض يشبه ندف الثلج الصغيرة التي تتساقط امام ضوء السيارة الخافت.

قالت ميليا انها لا تريد تمضية شهر العسل في شتورة. الثلج يتساقط فوق ضهر البيدر والبرد. قالت ان لا لزوم لفندق «مسابكي» ولا لزوم للعسل. «نبقى في بيروت يومين عند اهلي ثمّ نذهب الى الناصرة».

امها قالت انه كانون، وفي كانون لا يعسّل احد هناك، «ارجعوا، واعملوا العسل كله في الصيف».

الراهبة ميلانة قالت ان من الأفضل عدم الذهاب الى شتورة في هذا الطقس البارد، لكن لا وجود لاي خطر. «مغامرة غير نافعة من الأفضل تأجيلها».

منصور اصرّ، «ما بصير»، قال. اراد شهر العسل في شتورة، لأن الزواج والعسل لا يصيران الا في فندق «مسابكي».

قطّب موسى حاجبيه، وقال لأخته ان لا مشكلة. «الرجل يريد شتورة فليكن، اذهبي معه

الى هناك».

ركبت في السيارة الأميركية، جلست بثوب العرس الابيض الطويل الى جانب منصور في المقعد الخلفي، وكانت الزغاريد تصمّ اذنيها عن سماع صوت امها، التي انحنت على شباك السيارة ووشوشتها كلمات وداعية ونصائح نسائية. اقترب موسى من السيارة، ورمى لهما معطفين: معطفه الزيتي ومعطف امه البني، ونظر طويلاً في عينيّ ميليا قبل ان يلتفت الى منصور ويقول: «مبروك يا عريس»، ويمضي.

مشت السيارة وسط صمت لا يخترقه سوى شنين المطر البيروتي الذي يشبه الحبال. اغمضت ميليا عينيها، ثم فتحتهما على شفتيّ منصور تقبلان عنقها. ابعدت شفتيه وقالت «بعدين، مش هلق»، وعادت الى النوم. تهادت السيارة في المنعطفات الجبلية التي تقود الى شتورة. نامت متكئة على باب السيارة، وفتحت عينيها على صوت منصور يأمر السائق بالمتابعة. كانت السيارة متوقفة وسط ضباب ابيض يغطي كلّ شيء، فأغمضت عينيها، لكن صوت منصور المرتفع اجبرها على فتحهما من جديد.

قال السائق انه لا يستطيع متابعة الطريق لأنه لا يرى الطريق.

فتح منصور باب السيارة الخلفي وقفز الى الشارع. مشى خطوتين حتى صار امام السيارة، التفت الى الخلف واشار الى السائق ان يتبعه. مشى بضع خطوات كأنه ينزلق على الجليد، ثم عندما لم تتحرك السيارة، عاد الى المقعد الخلفي، لبس معطف موسى الزيتي، وقال للسائق انه سيمشي امامه، وان على السيارة ان تتبعه.

قالت ميليا انه اختفى لأنها لم تره الا بعد ثوان، لفح الهواء البارد وجهها، وانتشرت ندف الثلج التي تتساقط فوق ضباب لا نهاية له. اضاعت ميليا زوجها، ثمّ رأته من خلال زجاج السيارة الأمامي كأنه شبح يتسلق الهواء.

«عفواً يا عروس»، قال السائق، «العريس مجنون شو بعمل»؟

كان جسد ميليا يرتجف برداً وخوفاً فلم تجاوب.

«قولي لي شو بعمل»؟ سأل السائق مجدداً.

«امشي وراه»، قالت ميليا بصوت مختنق.

«والعروس كمان خوتا، يا الله شو هالعلقة»، قال السائق قبل ان يدوس على البنزين فبدأت

السيارة تنزلق فوق الجليد.

رأت منصور يحمل شمعة منطفئة في يده اليمنى ويمشي، بينما انحنى السائق على زجاج السيارة الأمامي، وقادها ببطء شديد خلف معطف زيتي منتفخ بالهواء.

برم السائق رأسه الى الخلف، فرأت ميليا بؤبؤيه الأسودين، وكأنهما جمرتان منطفئتان. وخزتها عيناه، واخافها صوته المتحشرج. طلبت منه ان ينظر امامه، ويمسك بالمقود جيداً لأن السيارة تنزلق. لكنه لم يتوقف عن النظر اليها، بينما تابعت السيارة انزلاقها البطيء، وتابع السائق كلامه غير المفهوم.

«شو عم بتقول»، صرخت ميليا.

«حدا بعسّل بشتورة بكانون، زوجك بلا عقل». قال السائق، فخرج صوته بطيئاً ومتكسراً. بحلقت ميليا في الظلام امامها، فاكتشفت ان ما اعتقدته بؤبؤين كانا نقطتين محفورتين في مؤخرة رأس السائق الأصلع، الذي امتلأ بما يشبه نقاط زيت تخرج منها رائحة العفونة. انسحب احمرار الخجل عن وجنتيها، وعاد البرد الى عظامها، وبدأت اسنانها تطقطق. شدّت على شفتيها، واغمضت عينيها.

لا تدري ميليا ماذا قال السائق، لكنها تذكر انه تكلّم كثيراً، وشتم كثيراً. فتح باب السيارة مرات عدة كي يرى، وكان صوت الثلج المتساقط يشبه الهمس، والهواء البارد يلفح وجه العروس التي تجلس في زاوية المقعد الخلفي.

قررت ميليا ان تنهض من هذا المنام، وتتكلم مع الرجل الذي اختاره منام آخر زوجاً لها. فتحت عينيها، فركت خديها بكفيها، لتجد نفسها في السيارة. منصور ليس الى جانبها، انه هناك يمشي بعيداً وسط رياح عاتية، بينما يصوّب السائق بؤبؤيه اليها.

«الله يخليكِ ما تنامي»، قال السائق.

نظرت اليه ميليا بعينين مفتوحتين الى اقصاهما، رأت بؤبؤيه الاحمرين يتحركان في مؤخرة رأسه، وخرجت صرخة من بين شفتيها: «يا عدرا يا ام النور، خلّصي عبيدك يا والدة الاله»، قالت، قبل ان تعود الى السقوط في النوم.

لم ترَ ميليا ماذا جرى، ولم تسمع السائق وهو يقول «عجيبة»، ولم تلحظ كيف استدار زوجها ووقف الى جانب الطريق في انتظار السيارة.

في اللحظة التي صرخت فيها ميليا انقشعت الرؤية، واخترقت الضباب ثقوب الضوء، وتوقف سقوط الثلج. اوقف السائق سيارته في انتظار صعود منصور اليها، التفت الى الوراء كي يرى وجه المرأة التي صنعت الاعجوبة بصوتها. لكن ميليا كانت مغمضة العينين، والمنامات تتشكل دوائر من حول اجفانها. قال لها السائق انها اعجوبة، فتململت في جلستها، مسحت عينيها بكفيها وابتسمت. في تلك اللحظة فتح منصور باب السيارة وجلس الى جانب السائق.

«شو هالبرد»، قال منصور.

«وانا كيف بدي ارجع على بيروت»؟ قال السائق، بينما كانت السيارة تكرج نزولا في اتجاه سهل البقاع.

«الغطيطة كانت على ضهر البيدر»، قال منصور. «هلق مشي الحال».

«وانا وين بدي نام»؟ سأل السائق.

«خفت طير، والله طرت»، قال منصور، والتفت الى الوراء حيث تكوّمت زوجته على المقعد الخلفي، يغطيها معطف بني يرتجف على جسدها.

«العروس»، قال السائق.

«مالها العروس»؟ سأل منصور.

«بسّ صرخت يا عدرا دخيل اسمك راحت الغطيطة، ووقف التلج، العروس عملت عجيبة»، قال السائق.

«ميليا»، قال منصور وبدأ يعطس، قبل ان تجتاحه نوبة من الارتعاشات، وبدأت اسنانه تصطك، وصار يصدر اصواتاً كأنها تنهدات خارجة من اعماقه.

«افرك ايديك»، قال السائق.

بدأ منصور يعطس ويتأوه، كأنه يقاوم الاغماء، وجسمه يرتعش ويهتز من دون توقف.

«بسيطة»، قال السائق. «لازم تتحمّل، انت كان بدّك تكمّل المشوار، شدّ حالك».

حاول منصور ان يشدّ حاله، لكن قواه خانته، الارتجافات ضربت عضلات صدره وذراعيه وفخذيه، وشعر بالاختناق يصعد الى الأعلى. صرخ السائق بميليا ان تنتبه الى زوجها لأن لون وجهه صار ازرق، ولأنه صار عاجزاً عن الكلام.

تململت ميليا في جلستها، مدت يدها ولامست شعر منصور، «روق يا حبيبي هلق منوصل

على الاوتيل ومندفا».

بدأ الرجل يهدأ، انتظم تنفسه، واستطاع ان يقول لزوجته ان لا تخاف. «ما تخافيش انا قوي، وصرت احسن». وبدأ يعطس في شكل متواصل، طلب محرمة، فناوله السائق محرمته، اشاح منصور يده عنها، فمدت زوجته يدها بمحرمتها. ناولته المحرمة البيضاء المخرّمة التي ورثتها عن جدتها، وتركتها في خزانتها كلّ هذا العمر من اجل يوم عرسها. اخذ المحرمة، انحنى رأسه بها، وبدأ يتمخط ويتنحنح ويبصق.

لا تعرف ميليا كيف وصلوا الى الفندق، تذكر ان الضباب والرياح العاتية والثلوج حاصرتهم في وسط مرتفع ضهر البيدر، وانها رأت كيف خرج زوجها من السيارة ومشى فابتلعه الضباب. تذكر كيف توسّل اليه السائق في مدخل قرية صوفر، وقال انه لا يستطيع العبور الى شتورة في هذا الطقس المثلج، وكيف اصرّ منصور على متابعة الرحلة مهما حصل. تذكر ان السائق استنجد بها، لكن حين همت بالكلام انغرست عينا منصور في شفتيها واقفلتهما. رأت شاربيه الأسودين الكثيفين يرتعشان فوق شفته العليا، وتخيلت طربوشاً احمر على رأسه، واحبته.

وسط الرياح التي حاصرت السيارة، وصوت استغاثة السائق بأنه لا يستطيع اكمال المشوار، جاء الحب الذي انتظرته ميليا طويلاً. سقط الحب في قلبها، واحست وجعاً في ضلوعها، كأن قلبها وقع. ارادت ان تشهق بالخوف، لكنها لم تجرؤ. صمتت وقالت انه الحب. في البداية لم تشعر بأي عاطفة نحو هذا الرجل الذي رأته واقفاً تحت شجرة النخيل في الحديقة المجاورة لمنزلها. تطل من النافذة، فتراه يقف جامداً ينظر في عينيها، محاولا انتزاع ابتسامة من شفتيها. كان دائم الابتسام، لا يخفض بصره عنها الا حين تختفي وقد اصطبغ خداها بأحمر الخجل.

«ماذا يريد هذا الرجل الغريب»؟ سألتها امها.

ميليا لم تكن تعرف شيئاً عن الرجل، ولم تكن في وارد ان تحبه، شعره دائم اللمعان كأنه مغطى بالزيت، اما فوداه الأبيضان، فيشيران الى انه بدأ ينحدر الى الكهولة. لم ترَ فيه صورة عاشق منتظر، بل صورة أب يبحث عن ابنته الضائعة. وحين وافقت، لم تقل لأحد عن سبب قبولها به زوجاً.

قالت لموسى انها موافقة لأن العريس يشبهه.

قالت لأمها انها تعبت من الانتظار وتريد ان تتزوج.

قالت للراهبة ميلانة انها ذاهبة هرباً من جو البيت الخانق، بعد هجرة شقيقها سليم الى حلب، واستفحال امراض امها.

حين كلمته للمرة الأولى، قالت له انه ختيار.

«انا»؟

اشارت الى الشيب في فوديه.

«انا شبت لمن كان عمري عشرين سنة، بتعرفي ايش يعني الشيب، يعني نحن اسود، بالحيوانات ما حدا بشيب الا الأسد». قال انه في السابعة والثلاثين، وسوف يتزوج قبل الأربعين. «مرق عمر النبوة الأول وما تزوجت، بس ما رح اخلّي العمر التاني يفلت مني، والا بتروح عليي».

لم تفهم ميليا ماذا يقصد لكنها ابتسمت، فتشجع الرجل وقال انه يحبها ويريدها، وسألها اذا كانت تحبه.

«كيف بدّي حبك وانا ما بعرفك».

«انا بحبك من دون ما اعرفك»، قال، «حاسس فيك من جوّا، انت عم تحسّي فيي»؟

اومأت برأسها ليس من اجل ان تقول نعم، بل لأنها لا تدري، ففهم منصور الايماءة باعتبارها موافقة ضمنية.

«يعني ممكن»؟ سأل.

نظرت الى البعيد واغمضت عينيها، وكانت هذه الاغماضة بداية الحكاية.

لم تفهم ميليا ماذا قصد منصور بعمرَي النبوة الا في فندق «مسابكي» في شتورة. اقترب منها في ليلة العرس الثانية، واراد ان يأخذها.

«لا انا تعبانة»، قالت، وادارت ظهرها وغفت. تركها تسبح في تنفسها العميق، ثمّ تسلل نحوها من الخلف، وبدأ يداعبها، برمها وصار فوقها، ونام معها. احست ميليا، في تلك الليلة، كيف تبللت وتبلل الشرشف، وضربتها ارتعاشة برد. ارادت ان تنهض الى الحمام فشعرت بانحلال ركبتيها، اغمضت عينيها وحاولت ان تنام من جديد.

«قومي، قومي، حدا بنام هلق».

فتحت عينيها، اسندت رأسها الى حافة السرير الخشبية، ورأته عاري الجذع والسيكارة بين شفتيه، وعيناه تلتمعان.

« شفتي ما احلاك، تطلعي بالمراية، الحب بخللي المرا تصير احلى».

اغمضت عينيها وسمعته يروي عن اعماره. قال ان عمر المسيح فاته، لكنه لن يسمح لعمر النبي محمد ان يفلت منه.

لم تفهم ميليا، لكنها لم تسأل. شعرت بالاحتراق في اسفلها، وارادت ان تشرب، لكنها خجلت من النهوض من السرير بسبب قميص نومها المبلل.

«المسيح انصلب لمن كان عمره تلاتة وتلاتين سنة، ومحمد ظهرت نبوته لمن صار عمره اربعين. الرجال لازم يصير رجال بواحد من هالعمرين والا بتروح عليه. راح العمر الأول، وبالتاني لاقيتك».

«الشوفير كان معه حق»، همست ميليا، «انت مجنون».

في السيارة جاء الحب، فأغمضت ميليا عينيها، بحثت عن طربوش خالها متري كي تضعه على رأس منصور، فوجدته في حفرة مناماتها.

رأت منصور يلبس قمباز خالها الحريري الابيض، ويعتمر طربوشاً احمر مائلاً الى الأمام، ويلاحقها بقضيب رفيع من الخيزران. القضيب يلامس قدمي ميليا السمراوين والرجل الذي يلبس قمبازاً يصرخ بها ان تأكل عروس اللبنة. ميليا ببنطلونها القصير تتراقص تحت ضربات القضيب، والنار تشتعل في قدميها. يتراجع القضيب، تجلس الفتاة ارضاً وتبدأ في التهام سندويش اللبنة وزيت الزيتون، وتشعر بطعم البصل الأبيض والنعناع الأخضر. ميليا تأكل، والسندويش لا ينتهي. تلتفت الى خالها متري وتدعوه الى مشاركتها في طعامها. يقترب الرجل ويلتهم السندويش بلقمة واحدة. ميليا تسرق القضيب من يد الرجل، تركض والرجل يركض خلفها. ميليا في حديقة مليئة بالأعشاب الخضراء، تقفز فوق حفر مليئة بالماء، وصوت الرجل يرجوها ان تتوقف وتعيد له قضيب الخيزران. تسقط ارضاً، الخال يلهث فوقها، تفتح عينيها، يمّحي الخال ويختفي الطربوش، وتجد نفسها في السيارة وسط الضباب.

اختفى الخال تاركاً طيف ابتسامة على شفتيّ المرأة، وطربوشاً احمر مائلاً الى الأمام على رأس رجل قررت ان تحبه، وامرأة مستلقية على المقعد الخلفي في سيارة تاكسي اميركية، فاستسلمت لها، وغرقت في منام معتم لم تستفق منه الا حين وصلت الى فندق «مسابكي».

لم ترَ وجه منصور الكحلي، حيث اختلط ازرق البرد بسمار بشرته، الا حين وصلا الى

الفندق قبيل منتصف الليل. هزّها منصور من زندها، وسمعت صوتاً يقول: «يللا وصلنا». استفاقت كمن يخرج من اغماءة وقالت: «شو». . . وين»؟ قبل ان تتذكر انها عروس آتية الى شهر عسلها. انفتح باب السيارة، وكان منصور يقف في انتظارها حاملاً الحقيبة. اشار الى باب الفندق، فمشت الى جانبه، ثمّ التفتت الى الخلف فرأت صلعة السائق، الذي ينحني فوق المقود، ويداه مسترخيتان كأنه نائم.

«والشوفير»؟ سألت.

«اسّى منشوف»، قال منصور.

قادها الى باب خشبي مستطيل. قرع منصور الباب طويلاً قبل ان يفتح لهما صاحب الفندق جورج مسابكي، ببيجامته البيضاء وعباءته البنية. نظر الخواجة جورج اليهما بعينين صغيرتين صاعدتين من عنق يرتفع فوق كتفين منحنيين، وقد ارتسمت علامات الدهشة على وجهه، كأنه كان عاجزاً عن التصديق بأن هذين الكائنين الغريبين هبطا عليه في هذه الساعة من الليل من اجل تذوّق عسل الزواج.

«انتم العرسان»، قال صاحب الفندق، مدارياً سعاله الذي يبتلع نصف كلامه، بكُمّ عباءته.

اومأ منصور رأسه، قبل ان يلتفت الى السيارة المتوقفة في الخارج.

«اهلا اهلا، الحمدالله على السلامة، انا قلت مش رح تجوا بهالبرد والتلج، تفضلوا، تفضلوا، الغرفة بتجهز خلال دقايق». تركهما امام الباب وصرخ: «وديعة، وديعة، اجوا العرسان». فرك يديه امام الوجاق المشتعل كأنه يكلم نفسه: «يا عيني على هالليلة، وينك يا وديعة، شعلي الوجاق بغرفة العرسان، وتعي، بتعرف يا استاذ. . . »

التفت الى منصور فلم يجده، رأى ميليا تقف امامه بمعطفها البني الذي يغطي جزءاً من ثوب العرس الأبيض، وعينيها الواسعتين الناعستين، وخديها اللذين بدآ يتلونان بالأحمر.

«شو اسمك يا عروس»؟

التفتت ميليا الى اليمين كأنها تبحث عن الشخص الذي يخاطبه صاحب الفندق، رفعت يدها الى صدرها وسألت اذا كان السؤال موجهاً اليها.

«لكن مين عم بسأل، مش انت العروس»؟ قال جورج مسابكي، واجتاحته موجة من السعال

اجبرته على الانحناء. جلس على الكنباية واشار الى العروس بالجلوس الى جانبه. بقيت ميليا واقفة في انتظار عودة منصور. لا تدري لماذا انتابها شعور صاعق بأن منصور سيهرب الآن. رأته يعود الى سيارة التاكسي يجلس الى جانب السائق ويطلب منه ان يقوده الى بيروت.

«وانا شو بعمل»؟ قالت ميليا بصوت خافت.

«تفضلي حدّي»، قال جورج مسابكي، «هلق بتجي وديعة وبتطلعوا على الأوضة».

وضعت ميليا كفيها على عينيها، وسمعت منصور يطلب من صاحب الفندق غرفة ثانية.

كانوا اربعة في بهو الفندق الفسيح، طاولة صغيرة سوداء في المدخل، وخلفها علاّقة مفاتيح الغرف. لاحظت ميليا ان العلاّقة ممتلئة، وخمّنت ان الفندق فارغ. ثلاث كنبايات تشكل نصف دائرة من حول الوجاق، مغطاة بقماش مخملي احمر. سجادة عجمية مطرزة بصور الحيوانات الأليفة تحتل ارضية البهو، ويغلب عليها اللون الأحمر، وصور معلّقة بشكل عشوائي على الحائط المقابل. وقف الزوار الثلاثة في البهو، بينما بقي السيد مسابكي جالساً. نادى وديعة مرة ثانية، قبل ان يقف ويبدأ في تسلّق السلم الحجري الموصل الى الغرف، في الطابق الثاني.

سرت الحرارة المنبعثة من وجاق التدفئة المعدني في اجسام الرجلين والمرأة، الذين وقفوا في انتظار وديعة. تقدم منصور من احدى الصور المعلقة على الحائط واشار الى زوجته، «تعالي شوفي فيصل، هدا الملك فيصل الأول». تقدمت ميليا ببطء الى حيث يقف زوجها، ورأت اطاراً مذهباً في داخله رجال يعتمرون الطرابيش، يتحلقون حول رجل قصير القامة، ذي وجه مستطيل شاحب، ينظر الى البعيد كأنه لا يرى.

«هدا فيصل»، قال منصور مشيرا الى الرجل النحيل.

«هو كمان عمل شهر العسل بشتورة»؟ سأل السائق ساخراً.

«انت ايش بفهمك»، قال منصور. «بكرا منسمّي الصبي فيصل»، ونظر في عينيّ زوجته، «ايش رأيك»؟

لم تجاوب، فهي كانت تعتقد ان منصور سيسمّي ابنه البكر شكري، على اسم والده. »شو بعرّفني»، قالت.

«وانت ايش رأيك»؟ سأل منصور السائق الذي فرك يديه امام وجاق التدفئة، ثم وضعهما في جيبي بنطلونه، كأنه يخبئ الحرارة فيهما.

«العمى شو هالبرد، والله نيالك يا عريس».

نظر السائق الى ميليا التي وقفت الى جانب زوجها تحت صورة ملك سورية، الذي طرده الجيش الفرنسي من الشام، فأسس له الانكليز مملكة اخرى في العراق. «نيّاله زوجك يا عروس». قال وارتمى جالسا على كنباية مجاورة.

ظهر صاحب الفندق والى جانبه امرأتان قصيرتان، الأولى بيضاء، تبدو نصف عمياء، في الستين من عمرها، والثانية حنطية اللون في حوالى الثلاثين، لكنهما متشابهتان كتؤامين.

«وديعة خدي العريس والعروس على الغرفة رقم١٠»، قال الخواجة جورج.

تحركت المرأتان كأنهما شخص واحد. تقدمتا من السائق، «يللا الحقني يا عريس»، قالت وديعة الأولى، بينما عقدت الدهشة عينيّ وديعة الثانية وسألت، «مين فيكم العريس»؟

«هيدا، هيدا»، قالت وديعة الأولى، مشيرة الى السائق نصف النائم، الجالس على الكنباية.

«انا، انا العريس»، قال منصور.

«لا تواخذني يا استاذ، افتكرته هو العريس لأن العرسان دايما هيك، بشعين واختيارية وصلع، وبطلعوا احلى بنات على الغرف، يا حسرتي على النسوان». قالت وديعة الأولى.

«وديعة اسكتي»، قال صاحب الفندق وهو يتثاءب.

«هو العريس كنت عارفة»، قالت وديعة الثانية الحنطية اللون، وامسكت ساعد منصور من اجل ان تقوده الى غرفته.

«وانا»؟ سأل السائق.

«انت مين»؟ سألت وديعة الأولى.

«انا حنا عرمان»، قال.

«تشرفنا بس يعني مين»؟

«يعني هو الشوفير يللي وصّلنا، ولازم ندبره»، قال منصور.

نظرت وديعة الأولى الى وديعة الثانية، ثم نظرت الى الخواجة جورج مسابكي الذي تمتم: «الغرفة رقم٦، شعلوا الوجاق بالغرفة رقم٦». التفت الى العروسين وتمنى لهما ليلة سعيدة.

انحنى الخواجة جورج على الوجاق واطفأه، وغادر الى غرفته، التي تقع في طرف بهو الفندق،

بينما لحق الثلاثة بالمرأتين اللتين صعدتا بهم درجاً طويلاً اوصلهم الى غرفتين متواجهتين.

فتحت وديعة الثانية باب الغرفة الأولى واشارت الى العروسين، بينما وقفت وديعة الأولى الى جانب السائق بالقرب من باب الغرفة رقم ٦ وهما يتوشوشان.

دخلت ميليا الى الغرفة الفسيحة، فوجدت سريراً كبيراً، ومرآة تحتل الحائط المقابل. طاولة مربعة في الوسط مغطاة بشرشف برتقالي، وضعت فوقها زجاجة شمبانيا، ورغيفا خبز مرقوق، وصحن مليء بقطع الجبن الأبيض. الحمّام الى يسار السرير، والوجاق يشتعل الى جانب الطاولة. اقفل منصور باب الغرفة بالمفتاح، وسمعت ميليا وشوشة السائق مع وديعة الأولى، وصوت قهقهاتهما العالية.

لا تذكر ميليا في شكل واضح ماذا جرى في الغرفة. رأت منصور يخلع معطفه ويعلقه خلف الباب. رأته يقترب من الطاولة ويعالج قنينة الشمبانيا ويفرقعها، والرغوة البيضاء تطفو على الكأسين اللتين صبهما. اعطى عروسه كأساً ورفع كأسه.

«كاسك يا عروس».

اخذت ميليا شفة من كأسها، ابتلعت الحبيبات البيضاء الطافية على سطحها، واحست غثياناً خفيفاً يصعد من معدتها. وضعت الكأس على الطاولة، وقالت انها تريد فنجان شاي ساخناً. لكن منصور بدا كأنه لم يسمع. اكل لقمة جبنة، واعدّ لقمة لعروسه. ابعدت يده وقالت انها ليست جوعانة، فالتهمها، وشرب الكأس التي صبّها لنفسه دفعة واحدة. صبّ كأساً ثانية، وبدأت ترتسم على عينيه اشباح غريبة. ابتسمت ميليا وهي تتذكر كلام امها عن الهبل الذي يصيب الرجال في ليلة الدخلة.

امسكها الرجل من يدها وقادها الى السرير، شعرت بحلقها ناشفاً، هذه هي اللحظة المنتظرة، وعليها ان تكون شجاعة.

جلسا على طرف السرير، وضع منصور رأسه على عنقها وقبّله. سرت قشعريرة خفيفة في جسد العروس، وارادت ان تستلقي على السرير. تراخت الى الوراء قليلاً، ورأت نفسها تطير بين ذراعيّ منصور. الآن سوف يحملها بين ذراعيه ويطير بها قبل ان يحطها على السرير من جديد ويأخذها.

تراخت ميليا على السرير وانتظرت، تراجعت القبلات عن عنقها، وبدأ الرجل يرتعش.

ارادت ان تضمه اليها من اجل ان تهوّن الأمر عليه. لكنه قفز واقفاً، وبدأ يخلع ثيابه. توقعت ميليا كلّ شيء الا هذا. ان يقف العريس في وسط الغرفة ويبدأ في خلع ثيابه ورميها ارضاً. وجهه يتقلص كأنه يضع قناعاً، والشعر على كتفيه وصدره يصير مثل جلد سميك اسود.

الآن سوف يهجم ويفتحني، فكّرت ميليا، وسيطر عليها شعور غريب، كأنها تقف على شرفة عالية وتنتظر من يرمي بها الى الأسفل، مستسلمة لانتظارها. اغمضت عينيها على صورة السقوط المخيف، واليدين اللتين سوف تلقيان بها على السرير، وتشلّحانها فستانها، قبل ان تمزّقا ثيابها الداخلية.

سعال خفيف وارتعاشات، قررت ان تبقى مغمضة العينين، تاركة لمنصور حرية اختيار اللحظة المناسبة للهجوم.

طال الانتظار، وبدأ النعاس يحاصرها، استندت الى مرفقها الأيمن، وتسرّب اليها ما يشبه النوم الخفيف المتقطع، وبدأ ضباب الطريق يولد في عينيها. انتفضت وفتحت عينيها، فلم ترَ منصور يقف عارياً في وسط الغرفة. الرجل اختفى، رأت ثيابه المجعلكة مرمية على الأرض، وتذكرت منظره وهو يتخالع مع ثيابه. البنطلون يتداخل بالحذاء، والقميص يلتف حول العنق، والجورب يلتصق بالقدم. رأت شاربيه الأسودين الكثيفين يرتجفان فوق شفته السفلى، وعاودتها ابتسامة الانتظار. سمعت ما يشبه الأنين الخافت في الغرفة، ثم انتبهت الى ان الأنين يأتي من الحمام. تصاعد الأنين الذي ترافق مع صوت القيء والحشرجة. لكنها بدلاً من الذهاب الى الحمام كي ترى ماذا حلّ بزوجها، استلقت على السرير وتغطت باللحاف من دون ان تخلع فستانها.

«شو هالعسل»؟ قالت ميليا بصوت مرتفع معتقدة ان العريس الجالس على كرسي المرحاض يسمعها. وعندما لم يجاوب شعرت بالخوف، وتراءى لها الرجل الذي يبتلعه ضباب قمة ضهر البيدر متداخلاً بالبياض الحليبي الذي يغطي المكان، ويرتجف راكضاً الى السيارة، مصدراً اصواتاً تشبه النباح المغطى بالأنين. يفتح باب السيارة ويجلس الى جانب السائق وهو يرتعش ويتنهد. نهضت من فراشها، اقتربت من الوجاق، رأت ناره خابية، وضعت بعض قطع الحطب فيه، وانتظرت ارتفاع اللهب. تقدمت من باب الحمام ونادته، لكن منصور لم يجاوب. قرعت على الباب مرات عدة، فلم تسمع سوى انينٍ خافت كأنه آتٍ من مكان بعيد. انتشر الدفء على جسمها واحست بالحاجة الى خلع فستانها. انحنت على الحقيبة واخرجت قميص نومها الأزرق الطويل

ولبسته . سمعت الرجل يناديها . اقتربت من الباب ، «افتح لي يا منصور ، انا ميليا» . لكن الصوت الذي ناداها صار اكثر انخفاضاً ، كأنه يوشوش .

هل نده ميليا او يا امي؟

«افتح لي الله يخليك» .

«وطّي صوتك ، هلق بيسمعك الشوفير» ، قال الرجل بصوت مبحوح .

«بدك نجيب حكيم»؟

«روقي ، دخيلك روقي» .

انقطع الكلام وصارت تأوهاته غريبة . تيقنت ميليا من ان الرجل سوف يموت وبدأت تتداعى امام الباب . وجدت نفسها جاثية تقرع . امسكت مقبض الباب كأنها تتسلقه ، وسمعت منصور ينادي امه بالهمس . رجته ان يفتح ، واستمعت اليه متحشرجاً بالقيء . جثت دهراً ، وشعرت انها وحيدة وعاجزة ولا تستطيع شيئاً .

«انا نازلة اسأل صاحب الأوتيل عن اقرب حكيم» .

«وطّي صوتك هلق بيسمعنا الشوفير وبيضحك علينا» .

خرج صوت منصور كأنه من بئر عميقة ليقول لزوجته ان لا تخرج من الغرفة ، وان لا شيء .

«اسبقيني على التخت وانا لاحقك» .

لا تعلم كيف نهضت ، ولا كيف استلقت على السرير ، وتغطت باللحاف ، ونامت .

لماذا هي عارية الآن؟

ولماذا هذه القشعريرة التي تضربها؟

قررت ميليا ان تفتح عينيها لأنها احست بالموت . والموت لا يأتي الا على شكل منام طويل لا ينتهي . «الموت منام» ، قالت لشقيقها موسى . «تعا شوف ستّك كيف عم تحلم» . كانت الجدة ممددة على سريرها وسط الملاءات البيضاء ، والنساء يجلسن من حولها وصوت بكاء خافت . لم يجرؤ احد على النحيب على ملكة شلهوب حين اغمضت عينيها ومضت . الجدة لم تكن تحب البكاء على الأموات . «الموتى ما بموتوا ، ما حدا يبكي» ، صرخت بهم ملكة حين ماتت ابنتها .

يومها، وبعد حلول الظلام سمع الناس صراخ زوجها نخلة، الذي كان يجعر مثل ثور مذبوح. وسرت شائعات في الحي، ان الرجل مات بعد اسبوعين من وفاة ابنته بحسرة دموعه، لأن زوجته منعته من البكاء على ابنته سلمى.

لم ترِ ميليا لشقيقها موسى انها رأت خالتها في المنام. كان موسى في الثالثة، ولا يستطيع ان يفهم هذه الأشياء.

عشية موت الخالة فتحت ميليا عينيها على عويل امها، فقررت ان تعود الى منامها من اجل ان تنقذ خالتها. لكن الخالة الصبية التي كانت في العشرين من عمرها، بقيت مستغرقة في النوم ورفضت ان تفتح عينيها. كان المنام غامضاً، ولم تفهم ميليا معانيه الا بعد اعوام، حين جاءتها العادة الشهرية وحلمت انها تطير.

حين روت ميليا المنام لجدتها كان كلّ شيء قد انتهى. حبست الجدة دموعها وطلبت من الطفلة ان تروي منامها للناس. في ذلك اليوم، تعلمت ميليا ان تحكي عن الأشياء الغامضة التي تراها في الليل. اصطبغ خداها باللون الأحمر، امتد لسانها من بين فجوة اسنان الحليب الأمامية التي تساقطت، لدغت بكل الأحرف، وحكت. قالت انها رأت خالتها سلمى تسقط في بركة الماء في الحديقة، وتتخبط مستغيثة وسط الاسماك الصغيرة الحمراء. وانها مدت لها حبلاً، امسكت سلمى الحبل وحاولت ان تصعد، لكن الحبل افلت من يديّ ميليا. كانت الخالة ممددة على ارض مليئة بالحشائش الخضراء، اقتربت منها ميليا وحاولت ايقاظها، فسمعت جدتها تقول: «ما توعّيها اتركيها عم تحلم». استيقظت ميليا وهي ترتجف خوفاً، وحين عادت الى النوم من جديد، سمعت صراخ امها، فنهضت مذعورة من سريرها، وفهمت ان خالتها سلمى ماتت.

لم تقل ميليا الحقيقة، كذبت على الجميع لأنها خافت ان تروي بقية منامها، خافت ان تقول انها دخلت في منام خالتها وحلمت حلمها. من يصدق ان احداً يستطيع دخول منام انسان آخر؟ ميليا ايضاً لم تستوعب ما حصل، ولن تفهم معنى ان تدخل في منام انسان آخر الا لحظة موتها، حين رأت ما لم يره احد، ولم تعطِ سرها الا للطفل الذي خرج من بطنها.

استلقت ميليا الى جانب خالتها فوق الحشائش الخضراء، حيث غطت غمامة بيضاء عينيّ سلمى المغمضتين. رأت نفسها تدخل في الغمامة، وترى خالتها تطير فوق وادٍ سحيق. سمعت خفقات قلب المرأة التي تطير، وشاهدت الخوف في عينيها. كانت سلمى تلبس فستان العرس،

والطرحة الطويلة البيضاء ترفرف خلفها. فجأة سقطت الطرحة في البركة، وتساقط المطر حبالاً. حاولت ميليا اللحاق بها، لكنها لم تستطع. ركضت فتعثرت بقدميها وسقطت. نزف الدم من ركبتها اليمنى، نظرت الى الأعلى فرأت سلمى تبتعد وتصير نقطة بيضاء. سمعت ميليا بكاء امها، فتحت عينيها ورأت سعدى تنتحب في زاوية الغرفة. عرفت ان الموت جاء، وفهمت انه منام طويل، كما تقول جدتها، وانها استطاعت التسلل الى منام الموت وتذوّق طعمه المائي وهي في السابعة من عمرها.

لم يكن موت سلمى مفاجئاً، فالصبية التي رفضت جميع عروض الزواج في انتظار ابراهيم حنانيا، الذي سافر الى البرازيل، ووعدها بأن يعود غنياً ويتزوجها، اصيبت بالحمّى الصفراء التي كانت لا تزال تجرجر نفسها في شوارع بيروت. الجميع كان يعرف ان سلمى سوف تموت. ملكة اشترت فستان عرس ابيض كي تلبسه لابنتها في النعش. ميليا سمعت شيئاً من هذا الكلام من امها التي ساهمت في دفع جزء من ثمن الفستان. غير ان الأمور اختلطت في ذهن الفتاة. سمعت امها تقول ان عرس سلمى اقترب، ورأت الجدة، التي جاءت لزيارتهم في احد الصباحات، تبكي صبا ابنتها الضائع. لكنها لم تفهم معنى هذا الكلام الا حين رأته في منامها. وحين نطق لسانها بالحكاية التي كانت تتسلل من شقوق اسنان الحليب، وروت لجدتها كيف رأت ما لم يره احد، خافت من رد جدتها. «ما تحكي هيك يا بنت، منامات الأموات ما بشوفها الا الأموات». رسمت الجدة علامة الصليب على جبين حفيدتها وطلبت من الله ان يحميها، «صليب الروم يحرسك يا بنتي».

وفي المنام رأته.

قالت ميليا لأمها وجدتها انها رأت ابراهيم حنانيا يمشي خلف نعش سلمى. رجل قصير مدعبل، يلبس معطفاً طويلاً اخضر اللون، ورأسه منحنٍ كأن عنقه الصغير عاجز عن حمله. قالت انه كان يلبس حذاءً بنياً وابيض، يمشي كمن يترنح ولا يجد ما يستند اليه. قالت انه كان وحيداً، وحكت معه. لا هو الذي حكى. اقترب منها وقال ان لا احد تعرّف اليه. قال انه تغيّر كثيراً في البرازيل. «لم اكن قصيرا هكذا، لكني سمنت، والسمنة تقصّر الانسان، يمكن ما حدا عرفني منشان هيك». ابتسم عن اسنان صفراء، وسألها اذا كانت هي سلمى.

«سلمى ماتت، وانا ما خصّني».

«بعرف بعرف»، قال، «بس انتِ سلمى مش هيك».

حين حاولت ان تردّ عليه علق لسانها في فجوة الحليب، واحست انها عاجزة عن تكوين الكلمات، وان ما يصدر من فمها ليس سوى غمغمات غامضة، وبدأت تبكي.

ارادت ان تسأله لماذا لم يرجع من البرازيل قبل موت سلمى. ارادت ان تعرف اذا كان قد صار غنياً مثل جميع اللبنانيين الذين هاجروا الى تلك البلاد البعيدة. ارادت ان تقول ان خالتها ماتت بسببه، لكنها لم تستطع. احست بالكلمات تنفرط قبل ان تتشكّل، وبأنها تختنق ولا تستطيع ان تحكي.

انطبعت صورة ابراهيم في ذاكرتها في وصفه رجلها الأول. احست انها تحبه، وفهمت من الدموع العالقة في عينيه انه اضاع كلّ شيء حين رجع الى بيروت ليكتشف ان المرأة التي جاء من اجلها تحتضر.

هكذا كانت ستروي لمنصور لو روت. منصور حكى كلّ الوقت، ولم يترك متسعاً لكلام الصمت الذي يختبئ في ملامح زوجته البيضاء. وحين حاول ان يستمع اليها، كانت ميليا عاجزة عن الكلام، وتصرخ بالألم. تستدعي امها التي لم تأتِ كي تنقذها من منامها الطويل.

عندما اخبرت جدتها وامها عن لقائها بابراهيم حنانيا، امرتها امها بالسكوت، «خلص حكي يا بنتي، ومش فاضيين نسمع مناماتك كلّ الوقت».

«ابراهيم حنانيا كان ببيروت! ابن الكلب اجا وما مرق علينا، نطر البنت حتى ماتت، وبعدين شرّف»، قالت الجدة لابنتها وهي تكفكف دموعها.

«شو بكي يا امي، صدّقت منامات ميليا، شو هالحكي»؟

«مبلى مبلى، صار قصير ومبروم وصوته مش طالع، بس ليش ما اجا شاف البنت قبل ما تموت، هيدا مش حقّ»، تابعت الجدة.

«عيلة مجانين»، قالت الأم.

«انت المجنونة، ميليا شافت الرجال، وانا شفته كمان».

«كيف يعني شفتيه يا امي، الزلمة بالبرازيل، واجا اخوه وقال ان ابراهيم زعلان كتير، وما رح يقدر يجي على لبنان».

«لا، لا، كان هون وما شاف البنت، وحرق قلبها وقلبي».

قال لها ابراهيم انه خاف من الموت. «مش انت سلمى»؟ سألها.
«لا، انا ميليا».
قال انه لم يجرؤ على زيارة خطيبته حين كانت على فراش الموت، وصار يبكي.

«خلص يا بنتي»، قالت سعدى.

نظرت ميليا الى امها بخوف، وتوقفت عن الكلام. غادرت الليوان الى الحديقة، الصقت النبريش بحنفية الماء الموجودة فوق البركة، فتحت الماء وسقت الأشجار.

كان موسى في السابعة عندما وقف ممسكاً بيد شقيقته امام سرير الجدة الميتة. لم يفهم الصبي معنى الموت، ولا معنى ان تسافر جدته داخل مناماتها. سمع انين النساء المتحلقات حول سرير المرأة البيضاء، المغطاة بشرشف ابيض، فامتلأت رموشه بما يشبه الماء. لم يبكِ او يتنهد. وقف في انتظار ان تمسح اخته رموشه برؤوس اصابعها، وتنحني كي تقبّله في عينيه. كانت ميليا تمسح رموش موسى وتقبّله في عينيه حين تشعر انه خائف. مسحة الرموش هذه، تعيد الفتى الى نفسه، وتخرجه من حال الخوف التي تنتابه في الليل. كان موسى يخاف من كائنات الليل واشجاره. ميليا اخبرته ان اشجار الليل تملأ الفضاء بعد مغيب الشمس. وان المنامات تبني اعشاشها فوق اغصان الليل. وكان الفتى يخاف الليل واعشاشه. حين يستيقظ في العتمة، تزحف قدماه الحافيتان الى سرير اخته. تزيح ميليا قليلا من دون ان تفتح عينيها، فيتكوم الفتى حدّ اخته، تمد يدها وتمسح اجفانه برؤوس اصابعها، ثمّ تقبله في عينيه، فيسقط موسى في نوم عميق.

جاء موسى وكان في العشرين، واخبر شقيقته ان منصور حوراني يريد الزواج منها. وقف الشاب امام اخته التي كانت تجلس على طرف السرير، تنحني على جورب ترتقه. وقبل ان يحكي رأت رموش عينيه مبللة بالدموع. قال عن منصور فلم تقل شيئاً. وضعت الجورب المنتفخ بالبيضة الخشبية على السرير، ووقفت امامه. مدت يدها ومسحت اجفانه بأناملها. انحنت وقبلت عينيه وشعرت بطعم الدموع. رأته وقد عاد صغيراً بعينيه الخائفتين، وارتعاشة شفته السفلى، وقالت وهي تقبّل عينيه انها موافقة على كلّ ما يريد.

«مش هيك انت بدّك»؟ سألته.

استطال الفتى وعاد رجلاً، قطّب حاجبيه، ونظر الى شقيقته من اعلى عينيه، وقال نعم.

«متل ما بتريد»، قالت.

لم يسألها عن علاقتها بالرجل، ولم يقل ان منصور قال، حين طلب يدها، ان ميليا موافقة، وانها باحت له بحبها. فشعر بالخيانة، لكنه لم يستخدم هذه الكلمة حين سأل اخته عن رأيها.

«يعني بتحبيه»؟ سألها.

نظرت اليه كأنها لم تفهم ماذا يقصد، ابتسمت وقالت انها موافقة لأن منصور يشبهه.

«بتعرف كأنه انت»، قالت.

«انا»! اجاب مستهجناً.

«انت احلى منه، بس بيشبهك، كأنه خيّك».

عبس موسى وتمتم شيئاً عن كيد النساء.

«شو عم بتقول؟ ما سمعت»، قالت ميليا.

«مبروك يا اختي».

في ذلك اليوم شعرت ميليا ان عليها ان تكتشف الحياة من جديد. كأنها ولدت في تلك اللحظة، او كأنها وهي تنحني على رموش شقيقها الصغير، ثم تنتصب واقفة امام الشاب الذي اكتمل بالعشرين، والتمعت بعض الشعرات الرمادية في وسط رأسه، عبرت حياتها كلها كمن يعبر مناماً. وضعت راحتيها على عينيها، ثم مدت ذراعيها الى الأمام من اجل ان تلتقط المعنى الذي خرج من بين شفتيّ اخيها.

قال انها ستسافر الى الناصرة بعد الزواج مباشرة.

«متل ما بتريد»، قالت ميليا التي احنت رأسها، فانكسرت نظرتها على البلاط المعرّق بأزهار مرسومة بخطوط سوداء.

قال موسى ان المصّور سوف يأتي غداً. «بدي ياك تضللي عندنا، رح علّق صورتك على الحيط هون».

الصورة التي علقت على الجدار الأبيض في الليوان سوف تبقى في مكانها. موسى الذي ورث البيت عن امه، ترك الصورة كأنها صارت جزءاً من الحائط. الصورة المطبوعة على ورقة

كبيرة بيضاء، والموضوعة في اطار خشبي اسود، تُظهر ملامح ميليا بشعرها الطويل وعينيها اللوزيتين العسليتين، وانفها الصغير، وشفتيها المكتنزتين، وعنقها الطويل، وخديها الضامرين، وحاجبيها الرفيعين المقفلين. صورة نصفية صنعها المصوّر شريف فاخوري، الذي ادخل رأسه في علبة خشبية مغطاة بقماشة سوداء، واوقف ميليا امام الحائط الأبيض ساعتين كاملتين، كي يختار لها الوضعية الأجمل. بدت ميليا في الصورة كأنها تنبثق من الحائط الأبيض. امرأة بيضاء وملامح سوداء، والتماعة ضؤ تخرج من العينين.

موسى كان متيقناً من وجود شيء غريب في الصورة. كلّ شيء فيها مرسوم بخطوط سوداء منحنية، ما عدا البؤبؤين اللذين رسما بما يشبه اللون الأخضر.

جلب موسى الصورة الى البيت قبل العرس بثلاثة ايام. دق مسماراً وعلّقها على الحائط. تراجع ثلاث خطوات الى الوراء، ونادى اخته. هرعت ميليا الى الليوان لتجد موسى امام الصورة، والدهشة تملأ عينيه.

«شايفي»، قال.

«شكرا، شكرا، حلوة كتير»، جاوبت.

«شايفي العيون، وشايفي اللون، كأنه في ضؤ اخضر بقلب اللون الأسود، شايفي».

نظرت الفتاة الى صورتها وضربتها المفاجأة، واحست بالدموع. غطت الدموع عينيها وتفتتت الصورة داخل حقل مائي شاسع، وخافت من ان يكون ملاكها الحارس قد تخلّى عنها. كيف استطاع المصور الزحلاوي التقاط سرّ عينيها الخضراوين؟ عيناها ليستا خضراوين الا في مناماتها، حيث تصير ميليا صغيرة وسمراء وذات شعر قصير اسود مجعّد. كيف وصل المصور الى سرّ عينيها؟ هل فضحتها عيناها؟ ألهذا لم تعد ترى المنامات، وصار نومها منذ لحظة موافقتها على الزواج يشبه السقوط في حفرة عميقة معتمة.

صارت ميليا تخاف النوم، تستلقي على سريرها وتفتح عينيها وتقاوم النعاس. وحين يبدأ النوم في التسلل الى رؤوس اصابع قدميها، ينتفض جسمها دفعة واحدة كي يبدده. لكن النوم يلتفّ من حولها، يأتيها من الخلف ويسرقها، نازلاً بها الى عتمته. صار ليلها شاهداً على ارتعاشات جسدها. ينتفض فخذها كأنها اصيبت بضربة، تشعر بالسقوط فيرتعش كتفاها، تسترخي وتحاول ترتيب حكاية صالحة للنوم، لكن الحكاية تهرب منها ويلفّها الظلام.

اضاعت ميليا المغارة حيث تخبئ مناماتها، ولم تفهم لماذا الا حين فضحت الصورة سرّ عينيها.

وقف موسى حائراً امام اخته. لماذا كرهت ميليا الصورة الجميلة التي علّقها على الحائط؟

«وقفي قدامها وشوفي، كأنها مرايتك»، قال.

تأملت ميليا الصورة ورأت كيف انطبعت ظلال اللون الأخضر داخل الحبر الأسود. اشاحت وجهها وخرجت من الليوان. وقف موسى امام الصورة واحسّ انها تكلّمه، وانه يستطيع الموافقة الآن على زواج اخته. ميليا لن تذهب مع هذا المنصور الى الناصرة، بل ستبقى معلقة هنا على الحائط ولن يشتاق اليها.

التفت موسى فلم يجد شقيقته، لحق بها الى الحديقة، فرآها جالسة على الأرجوحة الخشبية المعلقة في اغصان شجرة التين الضخمة. رأى كيف ترتعش اخته بالبكاء، فلم يقترب منها. عاد الى الليوان، وجلس على الصوفا امام الصورة.

لم ترَ ميليا لمنصور انها بكت بكاءً مراً حين جلست على الأرجوحة. احست الدموع في شفتيها، وتذوقت طعمها، واكتشفت ان طعم البكاء مختلف عن اسمه. الدموع مالحة، لكن حين نصف طعمها نطلق عليها صفة المرارة. شربت ميليا دموعها المالحة وتذوقت طعما مراً جاءها من منام لم تحلمه، وفكرت ان لون المرارة اخضر، مثل البؤبؤين الصغيرين اللذين اختفيا من شاشة احلامها.

على سرير حديدي ابيض، وُضع الى جانب الحائط الأبيض حيث علّق موسى صورة شقيقته، ولدت ميليا، في الساعة الثانية عشرة من ظهر الاثنين ٢ تموز ١٩٢٣، وكان يوماً حاراً ورطباً. شمس بيروت الرصاصية تقرع الشوارع بحبال من نار. الشراشف الصفراء التي علقتها الداية ندرة سلوم على نوافذ الليوان، كانت تحترق بالضوء الذي يخترقها جاعلاً الغرفة اشبه بكتلة نارية صفراء. على السرير استلقت سعدى تئن بآلام الطلق. ندرة، القصيرة، السمراء، ذات الجسد المكتنز والوجه المستدير، التي تلتصق السيجارة المشتعلة بشفتيها، تسخر من المرأة التي تمدد نصفها الأعلى على عرض السرير، والعرق يغطي وجهها، ويبقّع قميصها الأبيض بسائل بدا اصفر اللون، من أثر وهج الشمس.

«روقي يا اختي، هيدا مش اول بطن، وما في لزوم للصريخ». قالت ندرة وهي تقف مكتوفة

اليدين، تمضغ عقب سيجارتها المشتعل، في انتظار المولود الجديد.

كانت سعدى تضع مولودها السادس. سلم لها ثلاثة صبيان، ابنها الأول سليم، وابنها الرابع نقولا، وابنها الخامس عبدالله. ومات لها ولدان، الثاني الذي بقي من دون اسم، وصار اسمه الصبي الأزرق، لأنه وُلد وحبل السرة ملتفّ حول عنقه، فاختنق بلونه الأزرق. والثالث نسيب الذي اصيب باليرقان بعد ولادته بأسبوع، ودخل في ذاكرة العائلة في وصفه نسيب الأصفر.

سعدى مستلقية على السرير في انتظار ابنها الرابع، الذي قررت ان تسميه موسى. بعد الولادتين الأوليين، صارت تضع بسهولة، كأن الطفل ينزلق من رحمها. تشعر بآلام الطلق، تجلس على كرسي الولادة بين يدي ندرة، ويلفها البخار المتصاعد من وعاء الماء المغلي الموضوع على الأرض في الليوان. تشعر بالانزلاق، ويأخذها ما يشبه الدوار، وتزحط مع الكائن الصغير الذي يخرج من احشائها. تسحب ندرة الطفل، ترفعه من قدميه، وتربت على مؤخرته كي يصرخ. وحين ترى الحمامة ما بين فخذيه، تطلق زغرودة طويلة، فيفهم يوسف ان صبياً جديداً اضيف الى عائلته.

في ذلك الصباح التموزي القائظ، حيث وصلت حرارة الجو الى ٣٤ درجة مئوية، كانت سعدى ممددة على السرير والألم يضربها. صراخها يرتفع، واللون الأصفر ينتشر على وجهها ويديها. لم ترَ سعدى كرسي الولادة، ولم تسأل عنه. في العادة، حين كان ماء الرأس يسيل، وتبدأ آلام الطلق، يذهب يوسف راكضاً الى منزل ندرة. تفتح الداية مرحبة، وتقول انها ترى صبياً على وجه يوسف. ينبعث من البيت دخان كثيف يتشكل مثل دوائر متداخلة. يستمع يوسف الى سعال المعلم كميل، وجلبة اصدقائه الذين يملأون المكان بقرقعة نراجيلهم، وصخبهم في لعب الورق. وبدلاً من ان يتفرج على لعبهم، معلناً رأيه المعادي للقمار، يهرع الى خلف باب الدار، يحمل كرسي الولادة، ويمضي. فتتبعه ندرة والسيجارة في فمها.

اما في ذلك اليوم، فقد انفتح الباب، ولم يكن دخان او اصوات نراجيل او صخب لاعبي الورق. المعلم كميل لم يكن هناك، وندرة في المطبخ تعدّ طعام الغداء. انحنى كي يحمل الكرسي ويمضي بها، فلم يجد الكرسي. وقف ساكناً لا يدري ماذا يجب ان يفعل، شدّته ندرة من ذراعه، وامرته ان يتبعها.

«الكرسي انكسر»، قالت، «ومن هلق ورايح رح نخلّف بطريقة افرنجية».

لم يسألها ماذا تعني الطريقة الافرنجية، مشى خلفها، وصعدا الدرج الطويل الذي يصل شارع ابو عربيد، حيث تقيم ندرة، بشارع زاروب الطويل، حيث تنتظر زوجته. استلقت سعدى على السرير مثلما امرتها ندرة، لكن الداية نهرتها، »نامي بالعرض وارفعي اجريكِ، بدنا نعرف نشتغل«.

غيّرت سعدى من وضعيتها في السرير والألم يعتصرها، وقالت كلمة واحدة: «وين»، ولم تستطع اكمال جملتها، لأنها بدأت ترتجف بالألم.

«ما في كرسي»، قالت ندرة، «اليوم بدنا نخلّف بطريقة مودرن، ارفعي اجريك على التخت، وشدّي منيح».

لكن سعدى بدأت تبكي.

غسلت ندرة يديها بالماء والصابون، اقتربت من سعدى، وقالت لها ان لا تخاف.

سعدى التي كانت تتلوى في فراشها لم تسمع كلمات ندرة، شعرت انها في حاجة الى الهواء، تشدّ فيختنق الهواء في رئتيها، تفتح فمها مستجدية الاوكسيجين فترى ندرة خلفها تحمل منشفة صغيرة تلتقط بها العرق الذي تجمّع على جبين سعدى وعنقها.

«روقي يا سعدى».

لكن الطفل رفض ان يبدأ رحلة خروجه الى العالم. ركعت ندرة بين فخذي المرأة الممددة على السرير، مدت يدها كي تتحسس الرأس الذي اتخذ شكلاً عمودياً استعداداً للهبوط، حاولت الامساك به، فلم تستطع.

«شدّي، شدّي».

«هوا، دخيلكم هوا، عم بختنق»، قالت سعدى وهي ترتعش، ضربتها ارتجافة عنيفة وبدأت اسنانها تصطك.

«دخيلكم رح موت».

«ما تخافي، ما رح يصرلك شي»، صرخت ندرة.

اغمضت سعدى عينيها ولم تعد تسمع. ارتفع الطنين في اذنيها، وتركت نفسها لارتجافات تعصف بكل انحائها. هرعت الداية الى الخارج، جلبت ماءً بارداً في وعاء صغير، وبدأت تضع كمّادات ماء على جبين سعدى. خفّت الارتعاشات، وبدا ان المرأة الحبلى استعادت قدرتها على

التنفس.

«هلق رح انزل لتحت»، قالت ندرة، «ولمن بتحسّي بالطلق شدّي، رح نشدّ مرة واحدة، وانشالله خلص».

ركعت الداية، وبدأ العرق ينتشر على فستانها الأزرق القصير، واحست هي ايضاً بالاختناق. كانت تريد ان تشتم، «كسّ اخت هالشغلة من اساسها»، لكنها تمالكت نفسها، وصرخت: «شدّي». شدّت سعدى بكل ما تملك من قوة. «شدّي بعد»، لكن جسد سعدى تراخى فجأة.

عادت الارتجافات الى جسم المرأة الحبلى الممددة على السرير، ولم تجد الداية ما تفعله. وقفت تنتظر، ثمّ بدأت ترى ذلك اللون الغريب. صارت سعدى تسبح في اللون الأخضر. الأخضر يزحف على خديها وعينيها، وكلّ شيء فيها يتلاشى. البقع الخضراء تنتشر على الوجه واليدين والفخذين والقدمين. لم يسبق لندرة خلال مهنتها الطويلة ان رأت لوناً يشبه هذا اللون. عندما دخلت الى الغرفة وامرت يوسف بأن يغطي النافذتين المطلتين على حديقة آل رحّال الملاصقة للبيت بالشراشف، شعرت بالنار تنبعث من اللون الاصفر.

«شو هاللون هيدا، غيّر هالشراشف».

لكن يوسف لم يتحرك من مكانه، «هيدا الموجود»، قال.

«برا، اطلع لبرا»، أمرته.

«كأننا في فرن»، قالت ندرة للراهبة ميلانة وهي تودعها على باب البيت.

«شيلي هالسيجارة من تمّك»، قالت الراهبة ميلانة وهي تغادر البيت، رافعة يديها الى الأعلى، كأنها تُشهد الدنيا الى انها هي من قامت بعملية الولادة.

انتشر اللون الأصفر في المكان مثل حريقة تلتهم كل شيء، ثمّ جاء الأخضر. اخضر فاتح بدأ يتغيّر تدريجياً حتى صار غامقاً، وامتدّ مثل دوائر على يديّ المرأة الحامل وقدميها. تراخت اطرافها، واختلط دمعها بالعرق الذي يتساقط من جبينها، وصارت كتلة من الأنين. لم تصدّق ندرة عينيها، انحنت على وجه سعدى، مسحت عنه العرق والدموع بمنشفة صغيرة بيضاء، ورأت كيف تلوّنت المحرمة بالعرق الذي صار اصفر.

خافت ندرة وسقط قلبها بين قدميها. «وقع قلبي يا ماسور، شو بعمل»؟ نظرت الراهبة الى المشهد بهدؤ، ثمّ بدأت في اعطاء الأوامر، وانتهى كلّ شيء.

ندرة التي وقفت امام هذا الأخضر الذي زحف بثقوبه التي تشبه العفن على كلّ شيء، تيقنت من انها لم تعد تستطيع شيئاً. الفكرة الوحيدة التي خطرت في بالها، ان تفتح باب الليوان وتهرب من هذه الجحيم.

قالت لميليا مرة انها من شدة خوفها من لون سعدى، كانت على وشك الهروب تاركة الفتاة في بطن امها.

«يعني كنت بعدني هلّق ببطن امي»؟ سألت الفتاة الصغيرة.

«لا يا حبيبتي مش قصدي، بس هيدا معناة الحكي».

هزّت ميليا رأسها كأنها فهمت، لكنها لم تفهم، ثم اكتشفت بعد ذلك بزمن طويل ان معنى الحكي هو اللامعنى. حين تركها ذلك الرجل لسبب تجهله، فهمت ان الحكي بلا معنى، وان الناس يتكلمون كي يملأوا الفراغات التي تفصلهم عن الآخرين ويعبئوا ارواحهم بأصوات الكلمات.

حلمت ميليا شذرات من ولادتها، لكنها رفضت ان تخبئ هذا المنام في حفرة ليلها، رأت اللون الأصفر ينتشر، انتفضت، فتحت عينيها بعدما سمعت صرخة انفجرت في داخلها، ووجدت نفسها تنهض من فراشها، وتذهب الى النوم الى جانب شقيقها موسى.

فتحت ندرة باب الغرفة فتصاعد منها ما يشبه الغبار. اقترب رجل طويل ونحيل من فتحة الباب وهمس: «طمنيني». طلبت منه ندرة ان يذهب بسرعة الى بيت الدكتور كريم نقفور، ويأتي به حالاً.

«المرا تعبانة ولازمها حكيم هلّق».

«شو القصة»؟ سأل يوسف.

مدت ندرة يدها واغلقت فمه، فأحس بطعم يمتزج فيه الدم والعرق والبراز. استند الى الباب كي يداري الغثيان والدوار.

«شو باك واقف متل الأهبل»، صرخت الداية، «يللا عند الحكيم».

ركض الرجل الى منزل الطبيب، وقف امام الباب وقرع، ولم يفتح احد. احتار ماذا يفعل، كان طعم الدم عالقاً في شفتيه والدوار يلفّه، واحسّ بالخسارة. هبطت عليه الخسارة من جميع الجهات، وصارت قدماه عاجزتين عن حمله. جلس على درج البيت في انتظار الطبيب، ثمّ تذكّر ان امرأته تموت، وان عليه ان يفعل شيئاً. حمل نفسه وبدأ يركض تحت شمس حارقة الى دير

الملاك ميخائيل. لا يعلم لماذا ذهب الى الدير، فهو لا يحب الحاجة ميلانة، ويكره سحرها الذي تمارسه على زوجته. لعنها عشرات المرات، وهدد زوجته بترك البيت اذا لم تستجب لرغبته في مضاجعتها. سعدى قالت لا، «الحاجة ميلانة قالت لي ان هيدا حرام بالصوم». وبقي خمسين يوماً في انتظار نهاية الصوم الأربعيني المقدس وقيامة المسيح كي يتسنى له مضاجعة زوجته. صباح عيد الفصح اقترب منها واخذها، فأحسها مثل عود يابس، ولم يشعر بطعم الأشياء، وغابت الينابيع التي كانت تغمره حين ينام معها. انسكب ماؤه من دون ان يرتوي. هذا الشعور بعدم الارتواء سوف يلازمه بعد ذلك طوال حياته. دخول سعدى في طقوس هذه الراهبة الغريبة الأطوار حطّم حياته الجنسية. صار يرى الخجل في عينيّ زوجته كلما اقترب منها، ولم تعد تسمح له بأن يمدّ يديه الى نهديها، وتتململ حين يقترب فمه من شفتيها. صار النوم معها مجرد دعوة كي ينتهي ويخرج. تهرع الى الحمام وتغتسل كأنها تزيل آثار الخطيئة.

«كلّ الحق على الراهبة، هيدي شيطانة مش قديسة»، قال لزوجته وهو يشعر بالألم في عضوه بعد ممارسة هذا الجنس المتخشّب. «انا بكرهها وما بدّي شوف خلقتها، اسمعيني منيح، الحاجة ميلانة ممنوع تجي على هالبيت».

كانت سعدى تدير ليوسف اذنا صمّاء، تزور الدير كلّ يوم، وتأتي بالراهبة الى البيت كي تمشح الأولاد بالزيت المقدس، وتتضرع الى الله كي يغفر لزوجها خطيئة عدم حبه للراهبة القديسة.

لسبب يجهله، وجد يوسف نفسه امام الباب الحديدي الكبير الذي يتوسط سور الدير، ويده تقرع، وصوته يصرخ: «دخيلك افتحي يا حاجة ميلانة».

فتحت الراهبة الباب وخرجت وهي تقول: «سعدى وبنتها، امشي ورايي على البيت».

عقدت المفاجأة لسان يوسف، كان يريد ان يقول انه لا ينجب سوى الصبيان، لكنه وجد نفسه يمشي خلفها متفيئاً الظل الكبير المتحرك الذي رسمته على الأرض. الشمس تحترق على الطريق الترابي الذي يصل دير الملاك ميخائيل بمنزله، ورائحة الأرض المتشققة تملأ الفضاء. مشى يوسف لاهثاً. العرق يتصبب من ظهره وثيابه تلتصق بجسمه. الراهبة الطويلة، العريضة المنكبين، ذات العجيزة الضخمة، تمشي امامه مهرولة بثوبها الأسود الطويل. يوسف يمشي في الظلّ الضخم الذي يتمايل فوق الطريق الترابي، ويتعرّج على الصخور، يصعد الى حديقة آل شبّوع، وينزلق هابطاً الى حقل الزيتون، ويشعر ان الهواء الذي يتنفسه يحترق في صدره.

في تلك اللحظات احس يوسف بالموت وخاف على سعدى. قال انه يقبل بما تريده، وانه مستعد للتوقف عن مضاجعتها اذا ارادت، شرط ان لا تموت.

مشى في ظلّ الراهبة وركبته فكرة الخوف من الموت، ورأى نفسه يتمتم الدعاء الذي تردده زوجته كلّ يوم: «يا رب لماذا كثر الذين يضطهدون نفسي، كثيرون قاموا عليّ، كثيرون قالوا لا خلاص له بإلهه، اما انت يا رب فعاضدي وناصري ورافع رأسي»...

«شو عم بتقول»؟ سألت الراهبة.

«ماشي، ماشي»، جاوب يوسف، وهو يرى ظلّ الراهبة يتمايل امامه، وجسدها الضخم الذي يواجه الشمس، وملامح الرجل العجوز التي ترتسم على وجهها. حاجبان كثيفان، عينان جاحظتان ونصف مغمضتين، جبهة عريضة، شفتان رفيعتان، انف ضخم، وبشرة زيتونية كامدة. وجه لا شيء فيه سوى الأنف الكبير بالشعرات الثلاث في وسطه كأنها عرف الديك، وشاربان رفيعان بنفسجيان كأنهما رسما بقلم كوبيا.

قال يوسف لسعدى ان الراهبة ليست امرأة بل رجل متنكر في شكل امرأة، وقال انه يكرهها، فحجمها ليس متناسباً مع قداستها. القديسون والقديسات يمتازون في العادة بالنحول، الجسد يذوب من اجل ان تتلألأ الروح. اما هذه المرأة فإن جسدها الضخم يقتل روحها النحيلة، جاعلاً منها اشبه برجل يمتلك صوت امرأة.

في ذلك القيظ التموزي نسي يوسف كلّ شيء، ولم يفكّر الا بالموت. وجد نفسه في الظلّ الأسود كولد صغير يتبع امه ويتفيأ ظلها.

عندما وصلت الراهبة الى مدخل البيت، التفتت الى الخلف، واشارت بحاجبيها الى يوسف كي يتقدمها. ركض يوسف وتسلّق الدرجات الحجرية الخمس، ومشى وسط حديقة الزنزلخت. فتح باب البيت واشار اليها بالدخول. هرولت الراهبة نحو الليوان ودخلت الى الغرفة الصفراء، فانتشر ظلها الأسود فوق كل شيء. لم تعطِ الراهبة ندرة فرصة ان تشتم مثلما كانت تفعل دائما. ابتلعت الداية الشتيمة في منتصفها: «وين الحكيم الأخو الشر»... كأن ظلام ثوب الراهبة ابتلع الكلمة قبل ان تخرج من شفتيها. الغرفة الكبيرة الملوّنة بأصفر الشراشف المسدلة على النوافذ امّحى لونها. كأن الشمس انطفأت. اما جسد سعدى المرتجف فقد سكن عندما غطّاه اللون الأسود الذي سال من ثوب الراهبة.

«لونها، دخيلك يا حاجة، لون المرا صار اخضر، وما بعرف شو لازم اعمل، لازم نجيب حكيم».

«لشو الحكيم»؟

«بسّ لونها».

«وين الأخضر»، سألت الراهبة، «ما في اخضر».

اختفى اللون الأخضر عن جسد سعدى، واحتلّه لون ازرق شاحب ما لبث ان انزاح، وعادت سعدى الى بياضها الناصع، بياض حليبي كأنه مخمل ابيض يغطّي الجسم، ويخبئ الضوء في ثناياه. هذا اللون سوف ترثه ميليا ويكون عنوان جمالها الذي سحر منصور، وجعله يأتي من بلاد الجليل كي تشرب عيناه البياض الذي يشع من جسم حبيبته البيروتية.

«ما في ازرق ولا اخضر»، قالت الراهبة، «كان جسم المرا تعبان، وهلّق مشي الحال».

هدأت سعدى، وتوقفت عن الارتجاف. رأى يوسف دموعاً لم يشاهد مثلها في حياته. كانت دموع سعدى تكرج على خديها وتتساقط على قميص نومها، وتصل الى اسفلها العاري. بحلق يوسف في المكان الذي لم يره في حياته الا كبقعة مظلمة يتحسسها بحثا عن اللذة التي وهبها الله لبني البشر، حين سمع صوت ندرة يأمره بالخروج.

«اتركيه هون»، قالت الراهبة بصوتها الرفيع الذي خرج من انفها. «اتركيه حتى يشوف قديش المرا بتتعذب».

استدار يوسف استعداداً للخروج حين سمّره صوت الراهبة في مكانه.

«ما تتحرك من مطرحك، خلّيك هون».

امرت الراهبة ندرة بالنزول كي تسحب الطفل.

«يلله يا سعدى يا بنتي يا حبيبتي، شدّي مرة واحدة وخلص»، قالت الراهبة.

«شدّي»، قالت ندرة بصوت منخفض، وركعت على الأرض، ومدت يدها تتحسس الرأس الصغير الذي يستعد للنزول.

غرقت الغرفة في الصمت، كأن سعدى استسلمت للنوم، ارتخت عضلات وجهها، واجتاحها البياض. رأى يوسف وجه زوجته يتمدد في البياض، ويغتسل بحبات العرق التي انتشرت فوقه.

«شيلي ايدك»، قالت الراهبة.

ازاحت ندرة يدها، وكوّرت ذراعيها من اجل استقبال الطفل الذي سقط من الرحم الى يديّ الداية. ضمت ندرة الطفل الى صدرها، ونسيت في دهشتها وانفعالها ان تمسك به من قدميه وتقلبه.

«ارفعيها»، صرخت الراهبة.

وقفت الداية متثاقلة، رفعت الطفل من قدميه، بعدما قطعت حبل السرة، وقبل ان تضربه على قفاه خرجت زغرودة من شفتيها.

قالت سعدى لابنتها انها لم تبكِ حين ولدت كما يفعل جميع الأطفال. «ندرة نسيت تضربك على طيزك، فحملتك الراهبة القديسة، ما حدا بيبكي لمن بكون بين ايدين القديسين».

يوسف له رأي آخر. «الراهبة ضربتها على طيزها، والبنت ما عادت توقف بكي، بس انتِ ما بتسمعي يا مرا، لمن بتكون الراهبة مدري كيف، كأنه حدا منوّمك».

امسكت الراهبة ميليا التي كانت مبللة بالدم، ورفعتها الى الأعلى كأنها تلصقها بالحائط. »مبروك اجت ميليا»، قالت. وامرت ندرة بأن تغسلها بالماء والملح.

«لشو الملح»؟ قالت ندرة. «نحن ما منغسل بالملح».

«مي وملح»، جاوبت الراهبة.

التفتت الى يوسف طالبة منه ان يجلب قنينة زيت زيتون. غسلت ندرة ميليا بالماء والملح ثم مسحتها الراهبة بالزيت، وقمطتها بقماشة بيضاء، ورفعتها بيديها فوق السرير كأنها تلصقها بالحائط الكلسي الأبيض.

«مبروك اجت ميليا، الله يكبّرها ويحرسها ويردّ عنها»، قالت الراهبة. وضعت الطفلة على صدر امها وخرجت. ركض يوسف وقبّل يديها شاكراً. فانطبع طعم الملح والزيت على شفتيه، انحنى على سعدى وباسها على جبينها.

«اجت ميليا»، قالت سعدى وهي تنظر الى الحائط، حيث رأت صورة ملتصقة فوق الكلس الأبيض، في المكان الذي ارتفعت فيه يدا الراهبة بالطفلة.

«شو هالاسم ميليا، لا انا بدّي سميّها هيلانة». قال يوسف.

«اسمها ميليا، خلقت واسمها معها، ما شفت الراهبة شو عملت، وكيف قالت اسمها، يعني

خلص»، جاوبت سعدى.

بعد ذلك اليوم بأربعة وعشرين عاما، سوف تقف سعدى مشدوهة امام الصورة التي علّقها موسى على الحائط في الليوان، في المكان نفسه الذي رفعت فيه الراهبة جسد ميليا المغسول بالماء والملح وزيت الزيتون. سوف تقول الأم لابنها انها رأت الصورة نفسها يوم مولد ابنتها، وسوف ينظر اليها موسى بعينين حائرتين، مُقفلاً حاجبيه كي يسكتها.

سعدى لن تروي الحكاية الا بعد سنة، حين صارت الصورة هي كلّ ما تبقّى لها من ابنتها.

«لمن رفعتها الراهبة صارت البنت صورة. هيدي هي الصورة، انا شفتها، شفتها لمن خلقت ميليا، وقريت تحتها هالحكي يللي عم تكتبوه هلق. «لكنها نائمة». وقتها شفت كلّ شي قدامي كأنه هلق. يا الله! ليش ما فهمت؟ كان كلّ شي مرسوم بالأسود، وكانت الراهبة عم بتمتم الكلام يللي مكتوب تحت الصورة».

الصورة التي علّقها موسى على الحائط في الغرفة التي تعرف باسم الليوان بقيت في مكانها، ولم تسقط عن الحائط الا عندما قرر موسى هدم البيت العتيق من اجل ان يبني على انقاضه بناية جديدة. البيت الذي يشبه منزلين متلاصقين، بحديقته الكبيرة، حملته ميليا معها في يقظتها ونومها حين رحلت الى بلاد الجليل. قالت لمنصور انها جلبت معها الرائحة، وانها تشمّ البيت العتيق كل صباح. البيت الذي يقع على تلّة ترابية تشرف على منحدر يقود الى دير الملاك ميخائيل، كان يحتمي من اسراب البرغش التي تجتاحه صيفاً بأشجار الزنزلخت، التي كانت اوراقها الخضراء النفّاذة الرائحة، تحرس البيت من جميع انواع الحشرات.

لكن البيت كان نصف بيت، ولم يكتمل الا حين تزوج يوسف. البيت الأصلي الذي اشتراه سليم شاهين، والد يوسف، كان يتألف من دار كبيرة واسعة تفصلها عن غرفة الليوان قناطر ونوافذ زجاجية، اضافة الى مطبخ صغير معتم، وحمام يقع في نهاية الممر الذي يصل المطبخ بالحديقة التي تظللها شجرة تين كبيرة لها ثلاثة جذوع، فيها علّق موسى وميليا ارجوحة خشبية مستطيلة تطير بهما الى السماء.

اضطر يوسف من اجل عينيّ سعدى ان يضيف الى البيت غرفة نوم وغرفة طعام وحمام، بناها بحجر الباطون. فبدا البيت اشبه برقعتين متصلتين. القسم الكبير القديم المبني بالحجر الرملي الأصفر، والقسم الجديد المبني بحجر الباطون. سقف القسم الأول خشبي مغطى بالتراب وبقشرة

رقيقة من الكلس الأبيض، بينما سقف القسم الثاني من الاسمنت. صار البيت بيتين متجاورين: بيت يلعب فيه الهواء صيفاً ودافئ شتاءً، وبيت حار صيفاً وبارد شتاءً. اقام الصبيان الأربعة في الغرفة الجديدة الباطونية، بينما اقامت ميليا مع والديها في غرفة الليوان، قبل ان يتحول الليوان الى المكان الذي اقامت فيه مع امها بعد وفاة الأب. هذا التوزيع الجغرافي للعائلة تمّ بعد وفاة الجدة. اذ اقامت حسيبة في الليوان ومعها اقام الأولاد كلهم. وبعد وفاة الجدة، قررت سعدى تغيير المشهد بأسره، اعطت الصبيان الغرفة الباطونية، وقررت الانتقال مع زوجها الى غرفة الليوان الفسيحة. ولم يجد احد حلاً لمعضلة ميليا. الأم اقترحت ان تنام البنت في غرفة الليوان مع الزوجين، لكن موسى اصرّ على ان تبقى ميليا معه في غرفته، وصارت ميليا في لا مكان، امها تدعوها الى النوم في غرفتها، وموسى يدعوها الى النوم الى جانبه او على صوفا صغيرة موضوعة في غرفة الصبيان. ميليا كانت تفضل ان تفرش على الأرض وتنام في غرفة الطعام، لكنها بقيت عملياً في لا مكان، تنام هنا على الصوفا وهناك على سرير حديدي وضعته امها في غرفة الليوان، تحمل مناماتها من هنا الى هناك، وتعيش تشردها الليلي، ولم تنحلّ المشكلة الا حين توفي الأب فاحتلت سريره.

مات يوسف عندما كانت ميليا في التاسعة. نقولا وعبدالله تسلما دكان والدهما بينما تابع الابن الكبير سليم دراسة الحقوق في جامعة القديس يوسف الفرنسية، وبقي موسى الصغير في مدرسة مار الياس بطينا.

رأت ميليا منام ولادتها بعد ثلاثة ايام من وفاة والدها. اصيبت ابنة التاسعة بما يشبه الخرس حين رأت يوسف ممدداً بالموت، وسمعت صيحات النساء وكلامهن الغامض.

«اجت حبيبته»، صرخت احدى النساء.

رأت الفتاة نفسها واقفة بين جموع النسوة المتشحات بالسواد، يلوحن بمناديلهن البيضاء فوق جثة الرجل المسجّى على السرير في الليوان. فهمت ميليا انها الحبيبة المقصودة، لكنها لم تكن تعرف ماذا تفعل الحبيبات حين يموت الرجل. انطعجت قدماها، ورأت نفسها مرمية على الأرض. حلمت هذا المنام مرات لا تحصى، قدمان تنطعجان، وفتاة صغيرة تسقط، فتأتي الراهبة وتعلّقها على الحائط. رأت نفسها ملفوفة بالقماش الأبيض، ويدان تقومان برفعها الى الأعلى، ثم تهوي.

لم تستطع ميليا الاقتراب من والدها والنظر في عينيه المغمضتين. لم تصل لأنها وقعت، واحست بطعم الحريق في داخلها. عاد هذا الطعم حين رأت نفسها تقترب من الرجل النائم في السرير الى جانبها. تريد ان تصل اليه كي تغطّي ارتجافة جسده باللحاف، وتربت على كتفيه وتقول له ان لا يخاف. لكنها تسقط. تفتح عينيها كي تزيح المنام، فترى الضوء يتسلل من شقوق الستارة الصفراء التي تغطي النافذة. تنظر الى اليمين، منصور ينام على ظهره، فمه منفرج، وصوت شخيره يعلو. تبتسم مطمئنة وتقرر ان لا تنام من جديد.

نهضت ميليا في الصباح، لبست ثيابها وجلست على طرف السرير تنتظر. نظرت الى زوجها، فرأت منصور وقد تحوّل نصف دائرة. ركبتاه مطعوجتان، يده اليسرى ممدودة تحت رأسه، يتنفس بعمق، وتصدر عنه بين فينة واخرى تنهيدة قادمة من اعماق منطقة النوم. احسته طفلاً صغيراً، انحنت فوقه لكنها تراجعت الى الخلف، وخرجت الى الحديقة الصغيرة في الفندق.

«كان بدّك تبوسيني»، قال منصور.

«انا، لا، كان بدّي غطّيك».

«طيب ليش ما بتخلّيني»؟

«شيل ايدك، بدّي نام».

«بس انا بدّي نام معك».

«الله يخلّيك ما تقول هالكلمة، انا نعسانة».

لم يفهم منصور لماذا تستعجل زوجته النوم، ما ان تضع رأسها على المخدة حتى تغفو، وترتسم على وجهها علامات الاسترخاء العميق. ثمّ اعتاد على أخذها نائمة. حين يشعر ان تنفسها بدأ يعلو، وانها دخلت الى عالمها الليلي، يقترب منها ويبدأ في مداعبتها، يعلو شيئاً فشيئاً، ويدخلها. تتأوه شفتاها المنفرجتان، لكنها لا تفتح عينيها. تكون كمن يحلم، كلّ شيء فيها يطفو، ومنصور يطفو فوقها، كأنه حين يدخل في مائها يصير كمن يسبح في المنام.